قيم الحج عند المرزوقي

شريف الدين بن دوبه*

التموقع في هذا الكون يبدأ بالإدراك ويمرُّ عبر المعرفة نحو هدف مبتغى ومطلوب هو الحقيقة ..هذه الحقيقة التي قدّم ((سقراط)) نفسه فداءًا لها ..ولازال الشرفاء يقدِّمون النفيس على مذبح الذات لسَبْرِ الماهيات والمقاصد من الظواهر وأحكام السلوك. والسياق الأكسيولوجي للأحكام يبعث على المشْكَلة والرغبة في التفسير أو الفهم ، هذه الأحكام تصنف عموما الى أحكام شرعية وأحكام وضعية ..وتراتبية الرسالات تشير الى تزامن التشريع مع سيرورة وصيرورة العقل البشري ، فالقدرة والاستطاعة والظروف عند الكائن البشري ليست معطاة في صيغة تامة ونهائية .

ومنظومة القيم ومعاييرها عرفت وخضعت أيضا لهذه الصيرورة..ويبدو هذا جليًّا في الحديث النبوي الشريف : ((إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).فالرسالة المحمدية تتويج نهائي لسلّم القيم الأخلاقية .

والشريعة الإسلامية كرسالة خاتمة تمثل في الإيحاء الأول للدلالة : الكمال والتمام ، ولكن المتداول يشير الى أن هذه الرسالة لم تقدَّم الى الآخر كما يجب أن تُقدّم له بل ساهم الكثير بالكثير في تشويه صورة الكمالية وتقديمها للآخر في أكمل الصور البدائية .. والحوادث التاريخية تحمل في أرحامها العديد من هذه المآسي ..

وجلُّ الفرائض الشرعية التي هي مناط التكليف بالنسبة للمرء المسلم في حاجة الى بحث ودراسة ، وممارستها كطقس قسري يتعالى عن الفهم والإدراك يتماهى مع غياب الوعي بمقاصدها في عموم الممارسات الفردية والرهطية .هذه الحالة المتردّية التي تعكس صورة المسلم كانت بالنسبة للبعض من المفكرين الإسلاميين ـ أمثال أبي يعرب المرزوقي ـ

* باحث في الفلسفة، جامعة وهران 2

مبحثاً يمثّلُ قلقا وجوديا يماثل ويحاكي الشعور السارتري والكيركيجاردي ، الذي عبّر عن أزمة الوجود عند الفرد الأوروبي .

إن المعيش الهاملتي الذي عايشه فلاسفة الوجودية يتقاطع مع المعيش الإسلامي الذي كمن وراء البحث في قيم الفرائض عموما ..والحج كفريضة خامسة لا زالت الحِكَم منها غريبة ومستعصية على الفهم عند الشخص المسلم فهو كشعيرة تحمل بعض العناصر التي تبدو في الظاهر مناقضة للمقاصد الشرعية فالتبرك بالأماكن المقدسةكدلالة سطحية يلمسها الحاج أو المعتمر تبدو في رؤية بعض المذاهب الإسلامية متعارضة مع روح الشريعة ...والأستاذ أبي يعرب المرزوقي المفكر الإسلامي يسعى جاهدا في إحدى مقالاته للتعريف بهذه القيم الكامنة في فريضة الحج وهي مساهمة تضاف الى الإنتاج الفلسفي والإسلامي لهذا المفكر ..فدلالة الحج ـ في تصور الأستاذ المرزوقي ـ حسب المدلول الأولي والمشترك بين عموم المكلَّفين هو أحد الفروض الخمسة الرئيسة والتي تحدِّد موقع القدرة المادية والروحية في طقس الحج ، فالفرائض أو الشعائر الإسلامية ليست متعالية ومُقصية لإرادة المكلَّف بل تنظر اليها بمنطق الإمكان إذ لا يكلِّف الله نفساً إلا وُسعها ، وهو ما يبني المعنى الظاهري للحج ، والمعنى الباطني له هو استعادة التجربة المحمدية الدالة على النقلة النوعية للجماعة العربية من حيثية التشرذم الذي كان عنوانا للمعيش الرهطي القبلي وقسوة الوجدان العاطفي وجفاءه لدرجة الوأد ...الى حيثية الحب واحترام الآخر لا كغير بل على خلفية أن الذات لا تقوم ولا تكتمل إلا بذلك الغير ..

ان تجربة الحج الطقسية ليست عبادة زمانية مثل فريضة الصيام أو فريضة الصلوات ولا عبادة نظرية تتأسس على الدلالات اللغوية كحال الشهادتين والتي يقتزن فيها القول والفعل أو مايعرف في حدّ علماء الكلام بالتوحيد الأقوالي والتوحيد الأفعالي ، بل هي عبادة مكانية زمانية .. فمسرح الأحداث فيها هو مكة أو بكّة والمجال الزمني هو شهر ذي الحجة وهي استعادة للتجربة الابراهيمية : التي تعكس العلاقة بين الإنسان وموقعه في الكون التي تمر عبر السؤال والنظر في آيات الكون ومستوى النظم والإبداع والتناسق في النظام الكوني ، والسؤال الابراهيمي ليس من قبيل اللحظة الطاليسية (نسبة الى

طاليس) أو الأرسطية .. بل هو سؤال يسلِّم فيه السائل بمحدودية المادة وحاجتها الى محدث يتعالى عنها ويكون غنيا بذاته عن أي علة أخرى ، فهو سؤال يعبر عنه الأستاذ المرزوقي بقوله :((السؤال المطلق في النظر الموصل الى الله وفي العمل الموصل الى طاعته)) ـ مقال: منافع الحج الثقافية: من خلال دلالة العودة إلى ابراهيم عليه السلام الموجود في الانترنيت على موقع : http://abouyaareb.spaces.live.com[1]

فالتجربة الإبراهيمية هي تجربة السؤال والتساؤل المؤدِّي الى الكشف والاكتشاف عبر الانتقال من الإدراك الحسِّي الى اليقين القلبي الى تجربة التسليم الكلي والمطلق بالأوامر الالهية إذتمثل بؤرة التوحيد في حقل التاريخ وفي مجال مابعد التاريخ

فالحج كدالّ يتقاطع مع الحجّة والاستدلال فعلى حدِّ قول الأستاذ المرزوقي : ((اهم معاني الحج ..يمكن استنباطه من العلاقة بين الحج والحجة . فكلاهما من نفس المادة : حجج ...والحجاج الذي يخلطه الناس بالجدال منهي عنه في الحج .. فالحجة التي يكون الحج مواطئالها هي الشهادة بمعنى الشهود للحجة البالغة التي تكون غنية عن الجدال ..)) ..فالمقاربة اللغوية تنقل الذهن الى الرغبة في امتلاك اليقين الذي يكون شهودا عيانيا وليس مبحثا نظريا نسعى لإثباته بالبرهان او بالجدال ..والمعرفة النظرية ليست غاية في ذاتها كما ادعى البعض بل الممارسة هي النهاية أما البحث النظري فليس إلا مرحلة ، فإبراهيم نبي الحجة العقلية بالذات ، إذ هو النبي السائل والنبي المضحِّي ...)) ويستخلص الأستاذ من هذه كيفية حصول الممارسة الصحيحة والسليمة التي تستتبع الممارسة التساؤلية ، فالنظري عبر الاجتهاد العقلي والنظر يؤدِّي حتما الى السلوك السوي ، فالسؤال الإبراهيمي انتهى الى نتيجة مفادها العجز عن إدراك الذات الالهية بالإدراك ويصبح العجز عن الإدراك إدراك ... فمحدودية الإنسان آية دالة على الوجود الالهي . كما يمكن فهم المنظومة القيمية التي تشمل عموما المنتوج الثقافي لأمة من الأمم ، والتي يستند إليها العمران البشري بحسب طبيعة الوجود وبحسب حكم الشرع والتي تمثل التصنيف الإسلامي الأصيل والذي فيه تقسِّم القيم الى خمسة : قيم الذوق ، قيم الرزق ، قيم النظر

[1] **http://abouyaareb.spaces.live.com**

، قيم العمل ،قيم الوجود ..وأصالة المفكّر تظهر في أصالة التصنيف حيث نكتشف في هامش المقال إحالة التصنيف الى مرجعيته التراثية :العلامة عبد الرحمن ابن خلدون وابن الأزرق فالتطابق بين طبيعة الوجود الأنطولوجي والأحكام الشرعية في عرف (ابن خلدون أغلبي وفي حد ابن الأزرق يكون مطلقا)..و الطقوس الشرعية الإسلامية حقلا تُقيَّم فيه على ضوءها أو مبحثا يمكن إخضاعه لهذا السلم من القيم ..فقيم الذوق تمظهر في الفنون الجميلة التي تعكس مستوى التزاوج بين طبيعة الطبيعة ، وطبيعة الذات ..وقيم الرزق تعكس الاقتصاديات كما يحدّدها الأستاذ المرزوقي والتسوّق تعيُّن لقيمة الرزق ..والقيم النظرية التي تنمط في الأنساق المعرفية او العلوم ..والقيم العملية ويقصد بها السياسيات .. والقيم الوجودية التي تتعلق بمعاني الوجود والحياة.ونلاحظ إعتماد الأستاذ الدراسات اللسانية في قراءة الواقع الإسلامي ، ففكر الجماعة يتعين رمزيا أو دلاليا من كمّ وكيف التصورات الحاصلة أفقيا (تاريخيا) أو عموديا (الإبداع الأصيل) . والأنماط أو الأنساق المعرفية لهذه الجماعة تحدّد المستوى المعرفي لهذه الجماعة . أما المستوى المادي في حد تعبير الأستاذ المرزوقي : ((هو انتقال بعض مبدعات المستوى الرمزي الى التحقيق الفعلي في تطبيقات وتمظهرات هي قيام العمران البشري بمؤسسات ومنتجات وتنظيمات وانجازات ذوقية ورزقية ونظرية وعملية ووجودية هي عين الوجود الفعلي للحضارة)) .

فالحج كطقس شرعي يتضمن جميع أشكال القيم دون استثناء . فالمنحى الجمالي الظاهر في اللون الأبيض الذي يشترك فيه الجميع يحمل دلالات جمّة... أولها معايشة صورة الحشر أوصورة القيام . فالايحاء الأول اشتراك جميع عناصر الجماعة في لون وشكل الكفن ، والسير في حركة تدفقية نحو المركز الذي هو الكعبة إذ تتموقع في أرض منحدرة بحيث يتهيأ للناظر أنه وديان تسير نحو المصب الواحد ، والجمال الحقيقي هو الذي يحاكي الطبيعة وليس المتعال عنها فالرمزية مظهر تجريدي يعبِّر عن وحدة الأصل ، ووحدة الغاية أو وحدة العلة المصدرية والغائية التي تؤسس لمشروع الوحدة الإسلامية أو الجماعة العقدية في اصطلاح الأستاذ المرزوقي .

((الحج عرفة)) عبارة صدرت عن سيّد الخلق النبي الخاتم تحصر كلّ الموضوع في محموله رغم أن محمولات الحج أو ماصدقاته لا تُمثّل عرفة إلا ركنا من أركانه ..فعرفة تعني العلم والمعرفة إذ تلمس من خلال المدلول التاريخي أن آدم عليه السلام بعد ان هبط الى الأرض لقي حواء في عرفات فإذا كان الحج هو عرفة فالمدلول التالي أو الحاصل هو التعارف فيكون الحج إذن موقعا للتعارف والمعرفة والعرفان .والآية تؤكد هذا المدلول : ((إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعرفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) فالتعدد والتنوع الثقافي والحضاري ليس إلا تنويعا للوحدة ..والحج موقع اللقاء بين جميع الجماعات العقدية ، فإبراهيم عليه السلام أب لجميع الأنبياء

إن قراءة الأستاذ لقيم الحج تكشف لنا عن الحكم الخفية ومنها خلفية التغيير للقِبْلة إذ ورد في المقال أن : " كل من يعتبر بيت المقدس أولى القبلتين لا يقول إلا ظاهرا من الحقيقة ... فهي الثانية في ترتيب التاريخ الديني الكوني كما يعرضه القران الكريم : ((وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود)) البقرة 124 ... ((وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمنهن قال انيب جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ..البقرة 124)) .

إن قراءة الأستاذ تظهر لنا أن القِبلة الأولى هي البيت الحرام وليس المقدس ، وتغييرها الى القدس ينمُّ عن أسباب يرجعها الأستاذ المرزوقي الى أسباب ناسوتية مردّها الى التحريفات والانحرافات التي تلت الرسالة الابراهيمية ..وتحويلها من بيت المقدس الى الكعبة هو إعادة للحالة الأولى الأصلية .. فانحراف اليهود عن القصد الابراهيمي ، واحتواء رسالة الخاتم محمد (ص) لهذا القصد وباقي الرسالات السماوية هو المؤشِّر الذي أعادللكعبة اعتبارها .ونلمس هذا في قوله :

((..فهذه الإمامة تقتضي بالضرورة أن يكون المسجد الحرام هو القبلة الأولى . ومن ثم فنقل القبلة من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى كان من نتائج التحريف الذي غير دين ابراهيم أو الحنيفية ...))

المسألة الرابعة من الفصل الثاني من المقال : منافع الحج الثقافية: من خلال دلالة العودة إلى ابراهيم عليه السلام

الحكمة من التغيير تكمن في البيان عن خطورة التحريف الذي تعرَّضت له الشعائر الابراهيمية وفحواه إفساد الدلالة الفعلية والمكانية للشعيرة بنقلها من المقصد الروحي الى الدلالة المادية ، فتحويل الطقوس وإفراغها من البعد الروحي والقيمي هو تجاوز وتخطي للمقصَد الحقيقي من الشعائر والكعبة رمز القبلة والتوجّه ليست إلا حجارة خشنة سوداء رُكِّبت بطريقة بسيطة وخالية من كل زخرفة معمارية وبسيطة لدرجة تبعث عن التساؤل عن سرّ الاختيار لهذا المكان ..فهي بداية للحركة وليست نهاية لها ، منها نبدأ الحركة نحو الله ، نحو المطلق ولا نصل إلا إذا عتقنا أنفسنا من أنفسنا فالعتيق التي نصف بها البيت توحي بهذه الدلالة كما أن خلو الكعبة من الاتجاهات تؤكّد البعد التجريدي للتوجه وتجاوز الحسّية والغائية في ممارسة الطقس الشرعي .

وخلاصة القول يمكن القول أن البحث في قيم الحج عند الأستاذ المررزوقي هو تأسيس جديد لمشروعه الفلسفي الإسلامي

الذي يقرّ فيه بتقاطع النمطين ..فالدلالات النظرية والذوقية لا تكتشف إلا بالفلسفة بجميع حقولها .(الهيرومنيطيقا والأنالوطيقا ، والتفكيكية والنقدية المتحرِّرة من السلط اللاواعية ،والانتروبولوجيا التي يصطلح عليها بعلم الكلام الناسوتي فالفهم الحقيقي والعميق لتاريخ أي فكر سواءًا كان دينيا أو فلسفيا يرجع ـ على حدِّ تعبير الأستاذ المرزوقي الى دور عاملين مضاعفين لساني ـ منطقي يحدِّد أسلوبها وشكله ، ومعرفي ـ وجودي يحدّد مضمون الأسلوب المتبَّع . هذه الأداة التحليلية التي ينتهجها المفكر تمثل سمة وتقاطعا مشتركا بين جميع الحضارات تؤكّد وحدة الأصل لها فالتنوع والتعدد الحضاري والثقافي للأمم في رؤية الأستاذ ليس إلا تنويعاً لصور الجوهر الواحد أو بلغة تيولوجية التعدد الحضاري هو تعيُّنات لآيات الله الواحد الأحد .